وفي الحديث دليل على ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي بمكة الى بيت المقدس وهو قول ابن عباس يعني
قوله للبراء قد كنت على قبلة وقالت طائفة ما صلى الى بيت المقدس الا منذ قدم المدينة سبعة عشر
شهرا او ستة عشر شهرا فعلى هذا يكون في القبلة نسخان نسخ سنة بسنة ونسخ سنة بقران وقد بين حديث ابن
عباس منشأ الخلاف في هذه المسألة فروي عنه من طرق صحاح ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا صلى
استقبل بيت المقدس وجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحرى
القبلتين جميعا لم يبن توجهه الى بيت المقدس للناس حتى خرج من مكة والله اعلم قال الله
في الاية الناسخة ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام اي من اي جهة جئت الى الصلاة
وخرجت اليها فاستقبل الكعبة كنت مستدبرا بيت المقدس او لم تكن لانه كان بمكة يتحرى في استقباله
بيت المقدس ان تكون الكعبة بين يديه قال وتدبر قول الله تعالى ومن حيث خرجت
فول وجهك وقال الله وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ولم يقل حيثما خرجتم وذلك
لان النبي صلى الله عليه وسلم كان امام المسلمين وكان يخرج اليهم في كل صلاة ليصلي بهم اذ كان ذلك
واجبا عليه اذ كان الامام المقتدى به فافاد ذكر الخروج في خاصته هذا المعنى ولم يكن حكم غيره
هكذا لانه لا يقتضي الخروج لا سيما النساء ومن لا جماعة عليه قلت نظير هذا في المعنى اختص
وهو ان قوله وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره خطاب عام له صلى الله عليه وسلم ولامته
يقتضي امرهم بالتوجه الى المسجد الحرام في اي موضع كانوا من الارض وقوله ومن حيث خرجت
فول وجهك شطر المسجد الحرام بصيغة الافراد والمراد هو والامة كقوله تعالى يا ايها النبي
اتق الله ونظائره وهو يفيد الامر باستقبالها في اي جهة ومكان خرج منه وقوله وحيثما كنتم
فولوا وجوهكم شطره يفيد الامر باستقبالها في كل موضع استقر فيه وهو سبحانه لو قيد الخروج
بغاية بل اطلق غايته كما عمم مبدأه فمن حيث خرج الى اين خرج كان من صلاة او غزو او حج
او غير ذلك فامر رسوله والامة باستقباله في تنقلاتهم لان الاتيان احوال الامة كلها في مبدأ
تنقلتهم من حيث خرجوا او في غايته الى حيث انتهوا وفي حال استقرارهم حيثما كانوا فافاد ذلك
عموم الامر بالاستقبال في الاحوال الثلاثة التي لا ينفك منها العبد فتامل هذا المعنى
ووازن بينه وبين ما ابداه ابو القاسم يتبين لك الرجحان والله اعلم بما اراد من كلامه
وانما هو لك امتثال امرنا منا من التواصي وقوله ومن حيث خرجت فول وجهك يتناول
اول الخروج وغايته له وللامة وكان اولى بهذا الخطاب لان مبدأ التوجه عمالة كان
وكان شديد الحرص على التحويل وقوله وحيثما كنتم يتناولهم اكثر الخلق وهو للاستقرار
وكانوا اولى بهذا الخطاب لتعدد اماكن الخلق وكثرتهم وتشتتهم واختلاف بلادهم
واقطارهم واستدارها حول الكعبة مشرقا ومغربا ويمينا وشمالا فكان الاحسن
في حقهم ان يقال لهم وحيثما كنتم من اقطار الارض وشرقها وغربها وسائر جهاتها

ولاريب

ولاريب انهم اذ دخلوا في هذا الخطاب منه صلى الله عليه وسلم فتأمل هذه النكت البديعة فلعلك لا تظفر بها في
غير هذا الموضع والله اعلم قال ابو القاسم وكرر الباري تعالى الامر بالتوجه الى البيت
الحرام في ثلاث ايات لان المنكرين لتحويل القبلة كانوا ثلاثة اصناف من الناس اليهود لانهم
لا يقولون بالنسخ في اصل مذهبهم واهل الريب والنفاق اشتد انكارهم له لانه كان اول نسخ
انزل وكفار قريش لانهم قالوا اندم محمد على فراق ديننا فكما رجع الى قبلتنا وكانوا قبل ذلك
يحتجون عليه ويقولون يزعم محمد انه يدعونا الى ملة ابراهيم واسمعيل وقد فارق قبلة ابراهيم واسمعيل
واثر عليها قبلة اليهود فقال الله له حين امره بالصلاة الى الكعبة لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين
ظلموا منهم على الاستثناء المنقطع اي لكن الذين ظلموا منهم لا يرجعون ولا يهتدون وقال الحق
من ربك فلا تكونن من الممترين اي لكن الذين شكوا وامتروا وعن الحق من ربك اي الذي امرتك به
من التوجه الى البيت الحرام هو الحق الذي كان عليه الانبياء قبلك فلا تمترين في ذلك وقال وان الذين
اوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم وقال وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون اي يكتمون
ما علموا من ان الكعبة هي قبلة الانبياء ثم ساق من طريق ابي داود في كتاب الناسخ والمنسوخ قال
حدثنا احمد بن صالح ثنا عنبسة ثنا يونس عن ابن شهاب قال كان سليمان بن عبد الملك لا يعظم ايليا
كما يعظمها اهل بيته قال فسرت معه وهو ولي عهد ومعه خالد بن يزيد بن معاوية فقال
سليمان وهو جالس فيه والله ان في هذه القبلة التي صلى اليها المسلمون والنصارى لعجبا قال خالد
والصواب اليهود قال خالد بن يزيد اما والله اني لاقرأ الكتاب الذي انزله الله على محمد صلى الله
عليه وسلم واقرأ التوراة فلم تجدها اليهود في الكتاب الذي انزله الله عليهم ولكن تابوت السكينة
كان على الصخرة فلما غضب الله عز وجل على بني اسرائيل رفعه وكانت صلاتهم الى الصخرة عن مشاورة
منهم وروى ابو داود ايضا ان يهوديا خاصم ابا العالية في القبلة فقال ابو العالية ان موسى
كان يصلي عند الصخرة ويستقبل البيت الحرام فكانت الكعبة قبلته وكانت الصخرة بين يديه
فقال اليهودي بيني وبينك مسجد صالح النبي صلى الله عليه وسلم فقال ابو العالية فاني صليت في مسجد
صالح وقبلته الكعبة قلت وقد تضمن هذا الفصل فائدة جليلة وهي ان
استقبال اهل الكتاب قبلتهم لم يكن من جهة الوحي والتوقيف من الله بل كان عن مشورة
منهم واجتهاد اما النصارى فلا ريب ان الله لم يأمرهم في الانجيل ولا غيره باستقبال
المشرق ابدا وهم مقرون بذلك ومقرون ان قبلة المسيح كانت قبلة بني اسرائيل وهي الصخرة
وانما وضع لهم شيوخهم واسلافهم هذه القبلة وهم يعتذرون عنهم بان المسيح فوض
التحليل والتحريم وشرع الاحكام اليهم وان ما حللوه فقد حلله وما حرموه فقد حرمه
في السماء فهم مع اليهود متفقون على ان الله لم يشرع استقبال المشرق على لسان رسوله ابدا

Copyright King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)